الجــــــاحظ

كان للبصرة — خلال القرنين الثانى والثالث الهجرى — شأن وخطر أتيا اليها من طرق عدة أهمها وأظهرها طريق العلم والأدب اللذين اتخذاها دارا لهما ومحلة لرحلاتهما فجملاها بذلك قبلة النظر ومطمح الفكر وغاية الأرب يحج اليها الناس من كل فج وتنسل الأدباء من كل حدب يقصدونها . كل يرجو أن يصيب من مفاخرها حظا أو أن يقتبس من نورها قبساً يضيء جنبات عقله وفكره .... فلا غرو بعد ذلك اذا قلت إنها أولى المدينتين — البصرة والكوفة — وإنها كانت بين أخرجت من قادة الفكر أول من دعم أساس النهضة العربية على ثابت من الدراسات العميقة العريضة الأساس التى شملت مناحى الثقافة والتفكير . وحسبك أن يكون من صناديدها وأفذاذها الخليل وسيبويه والمازنى وابن المقفع والجاحظ

نشأ الجاحظ فى هذا البلد الذى حدثتك عنه . ورسمت لك صورته التخطيطية . فدرس على شيوخه واستمع لرواته . وقضى حياته رغباته يطلب من كل ذلك اللغة والأدب وعلم الكلام . وما يتصل بها من المعارف فأصاب من الجميع بسطة وسعة . وكان خصب التفكير سامى القريحة ممتاز النظر عالى النفس . مأخوذاً بحب العلم فلم يقنع بما أدرك وحصل ورغب فى المزيد والاستفادة فأضاف إلى الثقافة العربية الفحة ألوانا جديدة من عصارة الثقافات الفارسية واليونانية والهندية . وبرفقة الفكر الفذ والعقل الجبار . تزعم الأدب وأم رجالاته فى حقبة من أزهى حقب العصر العباسى العظيم وكانت له مدرسة تتلمذ فيها كثيرون من أدباء عصره كما استحدث أسلوبا جديدا فى فنون الكتابة تأثره الكتاب وحاولوه ثم كان على رأس فرقة خاصة من أجلاء المعتزلة تسمت باسمه وتسبت اليه

قلت إن الجاحظ استحدث أسلوبا وخلق مدرسة وإيضاح ذلك يقتضى النظر والالمام بأمر الأسلوب الذى تقدمه والرجل الذى أوجده ... وما من ريب فى أن زعامة الكتابة فى العصر الذى تقدم الجاحظ كانت لابن المقفع الذى تصدر الكتاب وأرق أنواع النثر ما كان مسجعاً مصرياً فيه موسيقى الشعر ورنين القافية . وما تخلل أجزاؤه تحميدات شأن كتابات خريجى مدرسة عبد الحميد . ذلك أسلوب لا يتفق مع العهد الجديد للدولة آخذ مع ما استجد فى اللغة والأدب من أسماء وأعلام وأخيلة وتعابير فكان لا مندحة عن التجديد الذى حمل لواءه ابن المقفع وأظهر مزايا أسلوبه . التوسل البرىء من السجع والتكلف والتقطيع وكتاب كليلة ودمنة أصدق مثال له على أن من البر وتمام الفائدة أن نقول إن عبد الله لم يكن يلتزم أسلوبه هذا فى كل حين .

وبعد . فهذا صدر حديثى عن الجاحظ أما عجزه فأتطرق فيه إلى فرصة مقبلة إن شاء الله .

المنشاة — مدرسة أولاد سلامه ⠀⠀⠀⠀⠀⠀⠀⠀ عبد الحليم عبد الفتاح